اللغة العربية وسؤال الهوية

أ. د. علي خذري

تعتبر اللغة العربية جزءا من الهوية العربية الإسلامية، حيث اكتسبت – بفضل الإسلام- بعدا أدبيا تجلى في كل مظاهر الحياة الدينية عند العرب، وعند غيرهم من الأقوام والشعوب التي أسلمت، فأصبحت بذلك لغة التعبير عن الإرادة الإلهية والفعل الإنساني.

وإذا كانت اللغة العربية في ظل الحضارة الإسلامية قد عرفت ازدهارا كبيرا حيث وصلت إلى العالمية، إذ كانت الشعوب تتهافت عليها للتزود بالعلوم والفنون وأسباب الرقي «لقد أثبتت العربية جدارتها على مر العصور وحقها في أن تصبح لغة عالمية ويشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات لغوية متباينة. لقد نجحت العربية في عصور الازدهار أن تكون أداة فعالة لنقل المعرفة».١

فإنها في الوقت الراهن تعيش تدهورا على مستويات كثيرة لاسيما في ظل المتغيرات الدولية الحديثة أو ما اصطلح على تسميته بعصر العولمة الذي باتت فيه هويات الشعوب الثقافية – لاسيما الهوية اللغوية والوطنية والدينية – مهددة بالتراجع إن لم نقل بالزوال والتماهي في الغير.

فاللغة العربية اليوم تواجه تحديات كثيرة فرضتها العولمة بضغوطاتها التكنولوجية والإيديولوجية، لاسيما وأن اللغة العربية تفتقر – حاليا – إلى سياسة تقنية وليس للعرب والمسلمين مشروع حضاري واضح المعالم ترتقي وتتقدم في ظله فتكون لغة العلوم والتقنيات العالمية.

كما أن ثقافة العولمة تسعى إلى إلغاء الحدود الفاصلة بين الثقافات المختلفة حتى تتمكن من توحيد العالم تحت سلطة مشروع إيديولوجي واحد، فلم يعد الاهتمام باللغة التي هي أحد محددات الهوية والسيادة الوطنية، بل أصبحت اللغة مجرد واسطة يمكن الاستغناء عنها إذا لزم الأمر. واللغة بهذا المعنى لا تكتسب شرعيتها ومصداقيتها وفعاليتها من انتمائها التاريخي و الحضاري.

وهكذا اشتد الخناق على اللغة العربية بفعل المفهوم البنيوي الجديد للغة الذي فصل اللغة عن سياقاتها التاريخية والثقافية والحضارية والوطنية.

والذي زاد شعور الفكر العربي حدة بالإحباط هو تعرضه لتحدي الثقافة الغربية – لأسباب حضارية واقتصادية وتكنولوجية – وهيمنة هذه الثقافة على كل القطاعات المعرفية والاقتصادية، بما في ذلك هيمنتها على اللغة والأنظمة الرمزية، لامتلاكها لوسائل الاتصال وتنوعها وسيولة الإعلام لديها.

وهذا ما جعل من الفكر العربي فكرا عاجزا عن التواصل، لأن هذا الوضع جعله يقف موقف المتقبل والمستهلك للإنتاج الفكري الوافد عليه من الغرب.

إن هيمنة الثقافة الغربية ولغتها على الشعوب المغلوبة على أمرها جعلها تشهد تفككا وتحللا لثقافتها المحلية - ومنها اللغة الوطنية – التي فقدت قيمتها الحضارية بعد أن أفرغت من محتوياتها العقلية والروحية وأزيحت إلى الهامش البعيد الذي لا يملك أي تأثير على المركز «إن الحدث الأكثر أهمية على الصعيد الثقافي العالمي هو دون شك منذ قرن على الأقل بالنسبة لأغلبية أمم الأرض، صعود الثقافة الغربية، بكل ما تنطوي عليه من قيم روحية ومادية، ومنظومات علمية وأسطورية ورمزية إلى مصاف الثقافة السائدة التي تشكل مصدرا للحضارة».٢

وهذا ما جعل إيمان الشعوب الضعيفة يزداد حدة بعجزها وفقر ثقافتها.٣ ويعود هذا إلى عدم مشاركتها في العطاء الحضاري وخضوعها لتحديات ظرفية.

إن تذبذب الفكر العربي الذي فقد انسجامه الداخلي بفعل التحديات الحضارية والفكرية المفروضة عليه، يعود إلى علاقتنا بالتراث، إذ «لابد من الاعتراف بأننا لم نتمكن بعد من ترتيب العلاقة بين أجزاء هذا التراث من جهة. وبيننا من جهة أخرى بالصورة التي تجعله يؤسس ذاتنا العربية وفق متطلبات

العصر.٤ لأن الثقافة الغربية المهيمنة تريد "حل جميع الثقافات الأخرى بما فيها اللغة، واستبدالها بثقافة واحدة شكلا ومضمونا"٥ وتجعل الثقافات الأخرى تدور في فلكها بعد تجريدها من قيمتها الفكرية والروحية، وإحالتها إلى عناصر عجائبية وتزيينية (تحف)، وهذا ما جعل شلة من مثقفينا الذين تعرضوا إلى العنف الثقافي والفكري الغربي يدعون عجز اللغة العربية عن مسايرة العالم المعاصر، أو عجز العقل العربي وسحريته أو فقد الثقافة العربية وافتقادها للعناصر العقلانية والعلمية.٦ فمنهم من دعا إلى التخلي عن النحو العربي وقواعده (الماغوط) ومنهم من تهجم على حرمة الخليل (جماعة شعر)، ومنهم من نادى باستبدال العامية بالفصحى (سعيد عقل) ومنهم من نادى باستبدال العقل العربي بالميكانيزمات الحضارية الغربية، (مثل سلامة موسى) وحتى الجابري الذي تبنى مشروع نقد العقل العربي وإعادة تقويمه يقول عنه «أنه عقل "بياني فقهي" أي يعتمد في مجمله على اللغة والبيان آلته الوحيدة هي القياس، وطريقة العربي سواء في الفقه أو النص أو الكلام "هي طريقة واحدة تقوم على نفس الآليات والميكانيزمات التي تقوم عليها طريقة الفقهاء».٧

ومن هنا كان وعينا بضرورة تحديد علاقة اللغة بالهوية والسيادة الوطنية.

أولا- علاقة اللغة بالهوية والسيادة الوطنية:

تعد اللغة من أهم الملامح التي تكون هوية الأمة وتميزها عن غيرها من الأمم فاللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة، كما يؤكد ذلك هنتجتون في كتابه صدام الحضارات.٨

ومن هنا فإن أي تحد لثقافة ما ينطوي على تحد للغتها، فهل تواجه العربية تحديا من هذا النوع في عصر العولمة ؟

لقد أصبح موضوع الهوية في الوقت الراهن أحد المواضيع الأساسية التي تتصدر النقاشات، حيث تزايد الاهتمام بها مع تزايد التحديات التي تفرضها العولمة على الشعوب، ذلك أن الهوية في رأي الباحثين والمفكرين «آلية دفاعية متينة تحمي أصحابها من غزو العولمة المتوحشة، ومن هيمنة الثقافة الواحدة.»٩ وهوية الأمة هي «مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة والتي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى.»١٠ أي «أن هوية الأمة هي حقيقتها المميزة لها، حيث تتشكل من عنصرين أساسيين وهما: نمط العلاقة الرابطة بين الأفراد والمنطق الإيديولوجي الذي أنتج ذلك النمط، فهذان العنصران، هما اللذان يعطيان لكل أمة حقيقتها التي تتميز بها عن الأمم الأخرى ويكون بها، تشخيصها في الواقع، وسيرورتها في التاريخ.»١١

مما لا شك فيه أن اللغة تعد من أهم ملامح الشخصية الإنسانية إن لم تكن أهمها. فقد «يجتمع لديك العديد من الأشخاص المتشابهين في صفات أجسامهم وملامح وجوههم، ولكنك لا تعرفهم حق المعرفة حتى تعرف اللغات التي نشئوا عليها وتحدثوا بها، فهي التي تربطهم بالجغرافيا والتاريخ، تربطهم بالأرض التي قدموا منها والثقافة التي ينتمون إليها.»١٢

ومن هنا فإن إضعاف اللغات القومية وإحلال اللغات الأجنبية مكانها يعد شكلا من أشكال الاحتواء في عصر العولمة، بل هو شكل من أشكال تحطيم الثقافات لدى الشعوب الضعيفة، وإضعاف انتماءاتها إلى حضاراتها الأصلية، وسواء أكان هذا الأمر مخططا تسهر عليه مؤسسة أجنبية، أم كان عشوائيا، متمثلا في إعجاب المغلوب بلغة الغالب وجريه وراءه (كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته)، فإن النتيجة واحدة وهي القضاء على اللغة الأصلية، وإحلال اللغة الأجنبية محلها.

والناظر في الوضع اللغوي لدينا يجد أن اللغة الأجنبية قد اكتسحت المنزل والمدرسة والسوق وبدأت تتحكم في كثير من مناح حياتنا بل ظهرت أصوات (بني جلدتنا) تتعالى وتطالب بتعليمها لأطفالنا منذ الصغر، وظهر آخرون يرون أن تدرس بها العلوم جميعا وبدأت مدارس بالفعل في ذلك. وهناك دعوات لفتح أبواب المدارس الأجنبية لأبنائنا حتى يتمكنون من دراسة العلوم جميعها باللغات الأجنبية.

وأصبحت اللغة الأجنبية مطلبا أساسيا للوظيفة، لاسيما في كثير من الوظائف الحيوية التي لها علاقة بالمحيط الخارجي والميدان الاقتصادي الحيوي كالبنوك والمطارات والشركات وغيرها في الميادين الاقتصادية الفاعلة. كما تحولت مستشفياتنا وفنادقنا وبعض أقسام جامعاتنا وكثير من معارض البيع في أسواقنا وواجهات محلاتنا وقطاراتنا إلى بيئات أجنبية، يتبادل فيها العرب اللغات الأجنبية، وأصطبغت لوحات المحلات في شوارعنا بألفاظ أجنبية، كتبت باللغة

العربية.

وهكذا طغت اللغة الأجنبية على حياتنا، وهي في كل يوم تحقق انتصارا في مجال من مجالات الحياة، وموقعا من مواقع المجتمع. وإذا احتلت موقعا من هذه المواقع أقصت عنه اللغة العربية وهددت هويتنا الوطنية والقومية. وتكاد - بعد دخول عصر الانترنت والفضائيات – أن تنتزع لغتنا من ألسنتنا، بل أن تفرغ منها أدمغتنا. وهكذا أسهمنا في تغييب لغتنا عن واقعنا، وضيقنا آفاقها واستعمالها وقضينا على هويتنا!!

والسؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا في هذا العصر الهائج بكل ما هو غربي ما الذي نريده ؟ هل نريد أن نسلخ عن هويتنا العربية الإسلامية فنهاجر بعقولنا وألسنتنا إلى الغرب، ونتحول إلى مخلوقات تفكر بعقول أولئك القوم ونرطن بألسنتهم ؟

هل نتخلى عن إسلامنا وتراثنا وشخصيتنا المتميزة بين البشر في سبيل منافع آنية؟ أم نقف ضد تحطيم ثوابتنا. ونبني أنفسنا تدريجيا، في سبيل المشاركة في الحضارة المعاصرة من منطق الاعتزاز بأنفسنا والحفاظ على هويتنا وانتمائنا إلى حضارتنا العربية الإسلامية.

إذا كان الأمر المعقول هو الالتصاق بثقافتنا ولغتنا وهويتنا الوطنية والقومية والتحصن بإسلامنا وتراثنا، فإننا مطالبون بأن نحدد علاقتنا فيما يخص الثوابت بما ينسجم ومصلحتنا العامة، لا بما ينسجم وغايتنا الآنية، وأن ننظر في الأمور باعتبارها ما ستؤول إليه، لا باعتبار ما تبدو عليه في اللحظة الراهنة.

ولذلك فإن الحديث عن اللغة لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي، لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف دواخل الأمة، فمن خلال ألفاظها تعبر عن كوامن الإحساس بالمواطنة والشعور بالصلة والتوافق بالمشاعر، وهي من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة.

فهي القادرة في كل أحوالها على تحويل الإنسان إلى كائن اجتماعي يتحسس الواقع، ويستشرف الخصائص المميزة التي تكمن في كل إشارة من إشاراتها ودلالة من دلالاتها. وقد وجد فيها العرب منذ أقدم العصور، كغيرهم من الأقوام – صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها إلى أعماقه حسا ووجدانا. وتوغلها في تضاعيف نفسه لتعبر عن أدق خطواته ورغباته. وهي بالتالي «تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متماسكا ومتراصا، تحكمه قواعدها وأصولها، وتوحد تفكيرهم أساليبها وطرائقها، ومن هنا أصبحت اللغة تمثل الهوية الحقيقية التي توحد بين رغباتهم ومطامحهم».١٣

ومن هنا أمكننا أن نقول أن علاقة اللغة بالهوية الوطنية، علاقة ممتدة في النفوس، أصبحت صورتها في نفوسهم هي الصورة التي يعبرون عنها في كل مظهر من مظاهر حياتهم.

ثانيا- التحديات التي تواجه هوية اللغة العربية في ظل العولمة :

تواجه اللغة العربية في الوقت الراهن تحديات كبيرة فرضها عصر العولمة وما حدث فيه من تطورات تكنولوجية وإيديولوجية، إضافة إلى التحديات التي فرضتها قرون التراجع الحضاري التي مرت بها الأمة العربية الإسلامية فسلبت اللغة العربية قوتها وقدرتها على المنافسة.

ففي ظل العولمة يتجاذب اللغة العربية طرفان هما: ضغوطات العولمة التكنولوجية، لاسيما وأن اللغة العربية تفتقر إلى سياسة لغوية تقنية تساعدها على الانتشار شأن اللغة الإنجليزية، حيث أصبحت تكنولوجية الاتصال الحديثة تعتمد في معظمها عليها، فأصبحت اللغة العربية بذلك عالة على اللغات الحديثة التي نالت المكانة العلمية بفضل الفكر العلمي والرياضي الذي سيطر على نخبها ومفكريها وبالتطبيقات التقنية التي مست منظومتها الفكرية.

إن التقدم المذهل والتطور السريع لوسائل الإعلام والاتصال الذي عرفه عصر العولمة، والأجيال المتعاقبة للحاسوب، والدخول في عصر الشبكة العالمية للمعلومات "الانترنت" والترجمة الآلية وغيرها، أدى إلى حدوث ثورة معلوماتية وعلمية كبرى أوجدت بدورها تحديات لغوية وعلمية للغات. حيث أصبحت قضية علاقة اللغة بالمعلوماتية تشكل تحديا أساسيا للغة العربية في هذا العصر، لاسيما أن قضية معالجة اللغات آليا قضية شديدة التعقيد.

وإذا كانت الدراسات المعاصرة تقدر التدفق الإعلامي عبر شبكة الانترنت باللغة الإنجليزية ٨٨٪ وبالألمانية ٩٪ وبالفرنسية ٢٪ ويبقى الباقي ١٪ لباقي اللغات. فإننا نطرح سؤالا وجيها، أين موقع اللغة العربية من هذه الشبكة ؟١٤

أما الطرف الثاني فهو ضغوطات العولمة الإيديولوجية التي تسعى إلى تهميش

الثقافات الأخرى، وإلى إلغاء الحواجز اللغوية لصالح لغة الطرف المهيمن والعمل على إلحاق الثقافات المحلية بمقوماتها اللغوية بثقافة العولمة أمر مخطط له. ففي العالم العربي أزيحت اللغة العربية من أكثر من موقع لتحل محلها اللغة الأجنبية. لاسيما اللغة الإنجليزية التي أصبحت لغة العلم والاقتصاد والسياحة والإعلام. حيث يبدو ذلك جليا في بعض المؤسسات العربية سواء أكانت رسمية أم غير رسمية.

إذا كانت ثقافة العولمة هي ثقافة الهيمنة التي تسعى إلى إقامة ثقافة عالمية عولمية اندماجية قائمة على تهميش الثقافات الأخرى بما فيها مقوماتها اللغوية، فإن التساؤل الذي يطرح نفسه، هل هناك من سبيل لرد هذا التحدي العولمي الثقافي؟

مما لا شك فيه أن الانكفاء على الذات أمر غير ممكن، لاسيما وأن العولمة تمتلك آليات تحويل العالم إلى قرية صغيرة وموحدة، فلم يبق سوى التفعيل داخلها والعمل على التنوع الثقافي في إطارها، والتعامل معها من موقف الثقة بالنفس. لهذا يرى البعض أن الرد على ثقافة العولمة لا يمكن إلا بعولمة الثقافة، أي بإقامة عولمة بديلة تقوم في المجال الثقافي على إنتاج ثقافة عالمية، بحيث تجد الخصوصية مكانا لها في هذه المنظومة الكلية. ويقصد بالخصوصية هنا، الخصوصية الموجهة نحو المستقبل والتي تختلف في جوهرها عن الخصوصية الموروثة عن الماضي.١٥

وإقامة ثقافة عالمية مضادة للثقافة العالمية الإدماجية التي تسعى إلى إقامتها العولمة، ترتكز في أساسه على إعادة تركيب الثقافات المحلية ببنائها الداخلي، خاصة وأن الاختراق الثقافي لا يعني بالضرورة سلب الثقافة المخترقة لنسقها الداخلي وقدرتها الإبداعية. ولعل ذلك ما يعنيه برهان غليون بقوله «إن السيطرة الثقافية لا تعني بالضرورة، أعني في كل الحالات وعند كل الثقافات الخاضعة سلب الثقافات الأخرى اتساقها الداخلي، وقدراتها الإبداعية. فبإمكان الثقافات أو كثير منها بلورة إستراتيجيات فعالة للحد من هذه السيطرة أو الالتفاف عليها، أو التعامل معها بطريقة تسمح لها بالاستمرار في البقاء والصراع والمشاركة في الإبداعات الحضارية، كما هو الحال اليوم بالنسبة للثقافات الأوروبية في مواجهة الثقافة الأمريكية».١٦

وما دام مستقبل العولمة ينذر بهذا الوضع فإن من الواجب علينا، عربا ومسلمين أن نحاول – قدر الإمكان – التصدي لهذا الخطر، لا بالشعارات والكتابات الجوفاء ولكن بالعمل الجاد المنظم الذي يكسبنا مناعة ضد أخطار العولمة وشرورها، ويجعلنا نشارك الآخرين في معطياتها ومنافعها. ومن هنا فإنه لابد من أن ندقق النظر في علاقتنا بالأشياء التي تتصل بهويتنا وشخصيتنا، فنحدد علاقتنا بها كما يجب أن تكون لا كما يريد الآخرون. ومن الطبيعي أننا ونحن ننظر في هذه العلاقات أن نوازن بين الأمور فإذا كان من المعقول أن نتعامل مع ظاهرة العولمة بالحذر المطلوب، فإن من غير المعقول أن نتحصن منها بالرفض والانعزال عن العالم، أو ننسحب من المواجهة بالهروب والانكفاء على الذات. فذلك لا يكسبنا المناعة بقدر ما يجعلنا هدفا سهلا للتحطيم، وإذا كان لنا أن نفعل شيئا في هذه المواجهة، فإن من الواجب علينا أيضا أن نبادر بالعمل مسرعين، ذلك أن الأحداث تتوالى، والعالم يسير بسرعة مذهلة، وقد يأتي الوقت الذي يصعب فيه تدارك ما فات.١٧

أمام هذا التدفق المعرفي والضغط العولمي، كيف يمكن للعربية أن تستفيد من هذا الكم الهائل من المعلومات، وكيف يمكن التعامل معها لكي تصبح مصدرا للعمل الإبداعي والفني والفكري والعلمي بشكل عام؟ هذا ما سنوضحه في الصفحات القادمة.

ثالثا- كيف تستفيد العربية من إمكانات العولمة والحفاظ على هويتها.

لا شك أن اللغة العربية بإمكانها أن تتطور وأن تحتل مكانة أكثر وأحسن مما هي عليه الآن، لو أحسن أبناؤها الاستفادة من البعد الإسلامي، وما توفره العولمة من إمكانات لانتشارها وتعزيز مكانتها، ويمكن أن نوجز أهم الإمكانات والإجراءات التي تمكن العربية من النهوض بقوة:

أ. الاستفادة من دعم العالم الإسلامي:

اللغة العربية، كما هو معروف لغة العرب، ولكنها لغة المسلمين أيضا، فهي لغة القرآن الكريم، وهي وسيلة المسلمين لفهم دينهم، ومن هذه الناحية يمكن أن تستفيد من دعم منظمة المؤتمر الإسلامي بطرق مختلفة:

١. عن طريق الإسهام في نشرها وتوسيع مجال استخدامها بين المسلمين، لأن اللغة كما يقول (كالفيه)، كلما

كانت معروفة أكثر كلما اكتسبت قيمة أكبر ويقارن الاقتصاديون هذه الظاهرة اللغوية بشبكة الهاتف وشبكة البريد الالكتروني التي تزداد أهميتها كلما ارتفع عدد مستعمليها أو المشاركين فيها وكذلك اللغة.١٨ فإننا لو افترضنا وجود لغة قوية وقادرة على مسايرة التطورات التكنولوجية كاللغة "البروطونية" أو "الكرسكية" أو "الكاتالونية" فإننا لا نستطيع أن نتصورها، وهي تحتل مكانة مرموقة في سوق اللغات، لسبب بسيط وهو أن عدد مستعمليها قليل جدا، ولا يشجع على الاستثمار لإنتاج أو تطوير ما يخص تلك اللغة من تقنيات وبرمجيات جديدة، لأن عدد المشاركين فيها أو مستهلكيها (بلغة الاقتصاد) محدودة للغاية، ولكن اللغة العربية ليست كذلك.

٢. الاستفادة من عبقرية أبناء الأمة الإسلامية من غير العرب، وهم في الغالب مستعدون لخدمة اللغة العربية تطوعا، وقد أثبت التاريخ أن عددا كبيرا ممن خدموا العربية في السابق كانوا من غير العرب، وانطلاقا من أوطانهم التي تمتد من شرق المعمورة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها يستطيعون إن وجدوا من ينبههم ويرشدهم أن يزودوا العربية في كل سنة بآلاف المصطلحات الجديدة التي تمكنهم من مسايرة التطور واكتساب القوة والمنعة التي تمكنها من الاستمرار في أداء دورها في خدمة القرآن الكريم والإسهام في مسار الحضارة الإنسانية بوجه عام. ولكن كيف يمكن استغلال هذه الإمكانيات الذاتية؟

ب. استغلال العرب لإمكاناتهم الذاتية:

إذا كان بإمكان المسلمين من غير العرب أن يسهموا في خدمة اللغة العربية والحفاظ على مكانتها تحت سماء العولمة، فإن العبء الأكبر يجب أن يقع على عاتق أبنائها.

١. فمن واجبهم – كما يقول: ناصر الدين الأسد – أن يشعروا أبناءهم بأهمية لغتهم وأن ينمو لديهم الإحساس بجمالياتها، حتى لا ينفروا من تعلمها إلى تعلم غيرها من اللغات الأجنبية، وإنما يتعلمونها أولا ثم يتعلمون ما يتعلمونه من لغات أخرى ليجعلوه في خدمتها وتطويرها وإعلاء شأنها لتظل قوية مفيدة وجميلة.١٩ عليهم أن يحرصوا على استخدامها في كل المناسبات، وخاصة في المحافل الدولية، لأن الاستخدام الدوالي للغة يضفي عليها هيبة، ويزيد من ثقة أبنائها ومستعمليها في كفاءتها وفعاليتها، وبالنتيجة الحفاظ على الهوية الوطنية والقومية والإسلامية.

٢. على العرب أن يستفيدوا من الترجمة لتقوية لغتهم، إذ ليس من المعقول – كما رأينا– أن يترجم إلى اللغة الإسبانية أو اللغة اليونانية في سنة واحدة أكثر مما ترجم إلى اللغة العربية على امتداد قرنين.

فللترجمة دورها الهام لدى كل الأمم المتحضرة أو الطامحة للحاق بركب الحضارة، لأن الترجمة ليست وسيلة للاطلاع على ما لدى الآخرين من مستجدات فقط، وإنما هي وسيلة هامة في تقوية اللغة ودعم مكانتها لدى أبنائها قبل غيرهم. فالباحث الذي يبحث عن معلومة ما في لغته ولا يجدها يضطر إلى البحث عنها في اللغات الأخرى، وإذا تكررت هذه العملية وتكررت معها الخيبة في العثور على المعلومة، فإنه قد ينتج عنها الزهد في التعامل مع اللغة، حتى من قبل أبنائها الذين يعزفون عنها ويلجئون إلى اللغات الأخرى، وبذلك تتكمش اللغة وتترك مجال نشاطها وحيويتها للغات الأخرى.

ولهذا فإن موضوع الترجمة لا يجب أن يترك لأهواء الأفراد واجتهاداتهم الشخصية، بحيث ننتظر حتى يقرأ أحد المتفتحين كتابا أو بحثا ما ثم يعجب به ويقرر الشروع في ترجمته بوسائله وإمكاناته الخاصة، لأن مثل هذا الجهد – على أهميته وضرورته – لا يمكن أن يغني عن العمل الحضاري المهيكل الذي يجب أن تضطلع به الهيئات والمؤسسات التي يقع عبء إنشائها على عاتق الدولة العربية، وعلى عاتق الجامعة العربية التي يجب عليها أن تنشئ جامعات ومعاهد متخصصة في الترجمة لتخريج المتخصصين أولا، ثم تنشئ مؤسسات دائمة للترجمة تتابع كل ما يصدر في العالم، وخاصة ما ينتج في اللغات الكبرى من علوم ومعارف.

ولا شك أن الإمكانات المالية للدول العربية تسمح بإنشاء مثل هذه المؤسسات الدائمة، التي يجب أن تظل مستقلة في عملها عن الأهواء السياسة المتقلبة للدول العربية، بحيث لا يتأثر نشاطها بنوعية العلاقات الدبلوماسية بين الدول.

٣. على العرب أن يستفيدوا من التكنولوجيات والوسائط الجديدة لخدمة لغتهم وتعزيز مكانتها في العالم. لأن هذه التكنولوجيات، بقدر ما أثارات من المخاوف بأنها ستكون حكرا على اللغة الإنجليزية التي سيطرت بالفعل في أول الأمر على ساحات المعلوماتية وعلى تكنولوجيات الاتصالات اللغوية إلا أن الملاحظة – كما يقول "لوي كالفيه" «ترينا أن الأمور لم تسر تماما على النحو الذي رسمته تلك التخوفات المسبقة، صحيح أن اللغة الإنجليزية كانت أول لغة لـ (ألواب) (Web) لكن استعمالها تناقص ببطء، لأن اللغات المركزية وبعض اللغات الصغيرة، وجدت مكانها على "الانترنت"، وقللت من حصة الإنجليزية التي نزلت إلى ما دون ٥٠٪ بينما كانت تستحوذ على كل شيء قبل عشرة أعوام».٢٠

إذا كانت هذه هي الظروف التي تعيشها اللغات مع التكنولوجيات المعاصرة فكيف يمكن للعربية أن تتعامل معها ؟ وكيف يمكن لها أن تستفيد من خدماتها وتسهم في الوقت نفسه في تطويرها، لاسيما الفضائيات والشبكة العنكبوتية ؟

رابعا- كيف تستفيد العربية من الفضائيات ومن الشبكة العنكبوتية وتحافظ على هويتها؟

مما لا شك فيه أن هاتين الوسيلتين تعدان من أحدث وسائل الاتصالات ومن أشدها تأثيرا في عصرنا الحاضر، إذ بواسطتهما نستطيع أن نتعرف بسرعة كبيرة على كل ما يجري في العالم، ونستطيع أن ننتقي منه ما يتناسب وخصوصية ثقافتنا، وقد تفطنت معظم الأمم إلى قيمة الفضائيات، وحاولت وتحاول الاستفادة منها في التعريف بثقافتها لدى الأمم الأخرى وفرض هويتها، وذلك بالمحافظة على صلتها بالمهاجرين من أبنائها مهما كان موقعهم في العالم، كما تحاول من خلالها أن ترفع من عدد المتفهمين والمستخدمين للغتها في العالم، لأن اللغة كما يقول "كالفيه" «تزداد قيمتها كلما توسعت مساحة استخدامها وزاد عدد مستعمليها، والعرب عليهم أن يستغلوا هذه الوسيلة المعاصرة بكيفية تخدم ثقافتهم وتساعد على انتشار لغتهم وصورتهم وهويتهم بشكل إيجابي بين الأمم» لأنهم بذلك يسهمون في التقليل من تكريس أحادية اللغة ويساعدون على استمرار المثاقفة الإيجابية بين الأمم.

وإذا كانت الأمم الغربية والإنجلو أمريكية بالذات هي التي اخترعت "الانترنت" وهي التي استفادت منها قبل غيرها، ومن خلالها أعادت تصدير لغتها وثقافتها لمختلف شعوب العالم، بحيث نجد الآن جميع الأمم الناطقة بغير الإنجليزية تكتب كل معلوماتها وتعلن عن وجودها في مناطق التماس مع الآخرين بلغتها المحلية مرفوقة باللغة الإنجليزية – كما هو واضح في جوازات السفر وفي كل إعلانات الطائرات والمطارات، وفي لغة البواخر والموانئ – فقد استطاعت الأمم الغربية المشتركة مع اللغة الإنجليزية في الأبجدية أن تنخرط في منظومة "الانترنت" وإن واجهت بعض الصعوبات في البداية. في وقت مبكر ولكن اللغة العربية تأخرت عن ذلك بوقت كبير نسبيا، وهي لا تزال متأخرة بشكل ملحوظ في مجال الترجمة، لاسيما الترجمة الآلية في شبكة "الانترنت" حيث أن حضورها محتشم إن لم نقل شبه غائب.٢١

وللتغلب على هذه الصعوبة، يصبح من واجب المشرفين على الثقافة واللغة العربية أن يجتهدوا في تمويل الأبحاث التي تمكن اللغة العربية من اقتحام هذا الميدان الحيوي، الذي يضمن للغتنا تبادلا متوازنا ومثاقفة إيجابية، وهذا الأمر ليس هينا وليس مما يجب تركه لاجتهادات الأفراد، وإن كانت ضرورية، وإنما هو أمر جليل يجب أن تتكفل به الدول العربية مجتمعة، وتزداد أهمية هذه المسألة، إذا تأملنا بعناية ما يقول "كالفيه" من أنه «قد رصدت اعتمادات مهمة للقيام بأبحاث على ما يبدو هزيلة للسماح لـ (التيلدة) الإسبانية أو لـ (النبرات) الفرنسية بأخذ مكانها في المعلوماتية ومعالجة النصوص».٢٢

وإذا كانت الإسبانية والفرنسية وهما قريبتان من الإنجليزية وتشتركان معها في الأبجدية قد احتاجتا إلى مبالغ كبيرة وأبحاث على ضآلتها طويلة لإدخال بعض خصوصيتهما في لغة المعلوماتية الجديدة، فلا شك أن ما تحتاجه اللغة العربية، وهي الأبعد عن اللغة الإنجليزية سيكون أكبر من ذلك بكثير، ولكن المسألة مسألة وجود وتتطلب الكثير من الجهود والتضحيات التي يتوقف عليها مصيرنا ومصير لغتنا وهويتنا. وعلينا أن نختار بين أن نكون أو لا نكون.

وحينما نقول الكثير من التضحيات لا نعني بذلك تلك التضحيات المنبثقة عن

الشهامة والنخوة العربية التي تحكمها الظروف الآنية ويدفعها المزاج العربي المتقلب لأن مثل هذه التضحيات قلما تكون دائمة، وقلما يكتب لمشاريعها النجاح، وإنما نقصد بالتضحيات تلك الجهود الإستراتيجية المبنية على مخططات مرحلية مدروسة تنجزها هيئات مستقلة على الحكومات، التي يجب أن يقتصر دورها على توفير الدعم المالي الضروري لانجاز الأبحاث الكفيلة بتطوير اللغة العربية، وتمكينها من التواجد (الحضور) في كل ما يطرأ من مستجدات في ميدان المعلوماتية، وهذا ما تفعله معظم الأمم المتحضرة للمحافظة على مكانتها في مجالات المعلوماتية والوسائط الحديثة، كما رأينا في التجربة الفرنسية. وباستطاعة الساهرين على تطوير اللغة العربية أن يستفيدوا من هذه التجربة، ومن كل التجارب التي أثبتت نجاعتها في تطوير أي لغة من لغات الدرجة الثانية.٢٣

وعلى الرغم مما تبذله مجامع اللغة العربية في عدد من الأقطار العربية كمصر وسوريا، والأردن، والمغرب، وغيرها لتزويد اللغة العربية مما يستجد من مصطلحات في مختلف الميادين العلمية إلا أن مردودية عملها تظل جزئية وضئيلة إذا ما قورنت بسرعة تطور الحياة والعلوم في عصرنا؛ ولعل السبب الرئيس في ذلك يرجع إلى أن جهود تلك المجامع تبقى في معظم الأحيان – مشتتة تفتقر إلى التنسيق الضروري لإضفاء الفعالية على مثل هذه المشاريع الهامة.

وقد يكون من المفيد في هذه الحالة أن تنشأ على مستوى الجامعة العربية مجموعة من الأكاديميات لمتابعة ما يستجد في العالم على مختلف مستويات المعرفة ولتزويد الهيئات الرسمية ومراكز الأبحاث بالقواميس الضرورية لإنجاز أبحاثها باللغة العربية، ويمكن أن يبدأ هذا المشروع بالاستفادة مما تزخر به أقطار الأمة العربية من عبقريات في مختلف ميادين العلوم والفنون، مع مراعاة ما يمكن أن تسهم به كل جهة بحيث تكلف بما هي أكثر قدرة على الإفادة فيه، ويتوقع أن يكون مردودها فيه أجدى وأنفع، ويمكن أن يشرع في تنفيذ هذه الفكرة بإنشاء ثلاث أكاديميات – على الأقل – بحيث تكون إحداها بمنطقة المشرق العربي وتكون مهمتها متابعة ما يستجد من تجارب وما يستحدث من ابتكارات في إطار اللغة الإنجليزية واللغات الأسيوية التي أثبتت كفاءتها في ميادين العلوم والتكنولوجيات الحديثة، كاللغة اليابانية والكورية.

ولكي تتم الاستفادة من كل إمكانات الأمة في المشرق والمغرب، يجب أن تكون الأكاديمية الثانية في منطقة المغرب العربي، وتكلف بمتابعة ما يمكن أن يستجد من مبتكرات في إطار المنظومة الفرانكفونية واللغات القريبة منها كالإيطالية والإسبانية على أن تكون على رأس هاتين الأكاديميتين، الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيات التي تسهر على التنسيق بين المشاريع والمقارنة بين ما تنتجه الأكاديميتان الجهويتان في مختلف مجالات المعرفة للخروج بمصطلحات موحدة يتم اعتمادها ونشرها في الجريدة الرسمية العربية لتستفيد منها مختلف المراكز البحثية.

ومن هنا كان وعينا بضرورة تحديد المصطلحات وضبطها مع تبيان طريقة اشتغالها، وتحليل آلياتها، وهو ضرورة ملحة لأنها تساعدنا أولا على العودة إلى الذات واستقراء مكوناتها ومحددات خصوصيتها.٢٤

ولا شك أن مثل هذا المشروع (الأكاديميات) سيوفر الكثير من الوقت والجهد والأموال أيضا لأنه سيعمل على توحيد جهود الأمة، ويمكن الاستفادة منها بشكل أكثر فعالية مما لو ترك الأمر للجهود المشتتة التي يمكن أن يكرر بعضها بعضا، ويمكن أن يهدر فيها من الأموال والوقت أكثر مما تتطلبه تلك الأكاديميات القومية الجامعية.

ومع ذلك فإن قوة اللغة العربية الذاتية وما حظيت به من مكانة متميزة بين لغات العالم، بوصفها إحدى اللغات القادرة على نقل الثقافة بين الأمم، ومرونتها في الأخذ والعطاء مع اللغات الأخرى، ليست محل جدال، فقد اعترف بذلك كبار علماء اللغة الغربيين الذين لا تربطهم بها عاطفة، ولا يشدهم إليها تحيز.

يقول فاندريس: «إن عبقرية بعض للغات الهند أوروبية أو السامية مثل اللغة العربية في الانتشار هي نتيجة لأسباب عديدة بلا شك، ولكن القيمة الجوهرية للغة هي بلا شك أحد هذه الأسباب».٢٥

فما هي القيمة الجوهرية للغة العربية ؟ أليست هي الخصائص الفريدة الكامنة فيها التي جعلتها قادرة على التواصل مع الشعوب، والانتشار بينها، وذلك بنقل المعرفة والإسهام في إشاعتها ؟

ويقول اللغوي الشهير إدوارد سابير «وهنالك خمس لغات فقط تشكل أهمية كبرى لنقل الحضارة هي اللغة الصينية القديمة والسنسكريتية والعربية

والإغريقية واللاتينية»٢٦ ثم يقول: «إن من المخيب للظن أن نعلم أن التأثير الحضاري العام للغة الإنجليزية لم يكن إلا تافها، فإن اللغة الإنجليزية نفسها ما كانت تنتشر إلا لأن الإنجليز استعمروا أعدادا هائلة من الأصقاع، ولكن ليس هناك دلائل تشير – في أي مكان – إلى أن الإنجليزية قد دخلت القلب المعجمي للغات الأخرى، كما لونت الفرنسية سحنة اللغة الإنجليزية أو كما تخللت العربية اللغتين الفارسية والتركية».٢٧

خامسا- هوية اللغة العربية وموقعها في خريطة المعرفة العالمية:

تتبوأ اللغة العربية موقعا بارزا على خريطة المعرفة الإنسانية، يزداد أهمية يوما بعد يوم، وترتبط اللغة بعلاقات وثيقة مع الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، وكذلك مع الفنون بأنواعها، وقد أقامت اللغة أخيرا علاقة وطيدة مع الهندسة من خلال هندسة الذكاء الاصطناعي التي تساهم فيها الليسانيات الحاسوبية بقسط وافر، ونتيجة لما يتميز به الحاسوب من تقنية حديثة، وما يقدمه لنا من خدمات في حياتنا اليومية، فقد دخل شتى مناحي الحياة وأصبح يؤثر فيها بشكل مباشر، وتحديدا لهذه المناحي مجال اللغة "فقد ظهر الحاسوب في أواخر الأربعينيات وصلته باللغة تتوثق وتتصل، فاللغة تقع في قمة الموضوعات التي تهتم بها العلوم الإنسانية ولها دور محوري وأساسي على جميع المستويات المعرفية والتربوية والثقافية بل والسياسة والاقتصادية أيضا".٢٨

والحاسوب هو ذروة التقنيات الحديثة، فكان من المنطقي أن تلتقي اللغة والحاسوب كون اللغة تجسد النشاط الإنساني الذهني، في الوقت الذي يتجه فيه الحاسوب نحو محاكاة بعض وظائف الإنسان وقدراته الذهنية، لذلك نجد تكنولوجيا المعلومات قد فجرت إشكالية اللغة.

قد أدى احتكاك اللغة العربية بالحاسوب إلى عدة نتائج إيجابية ساهمت في تفعيل اللغة العربية، وجعلها تتماشى مع العصرنة وهي:

١. إنشاء قاعدة بيانات نصية تخدم جميع مجالات الدراسات اللغوية.
٢. عمل برامج إحصائية لحصر شكل الجمل والتراكيب والمفردات في الكتابات المعاصرة.
٣. رفض الأخطاء الإملائية واللغوية وتصحيحها بما يناسب قواعد اللغة العربية وأساليبها الصحيحة، وعمل تصور للقواعد اللغوية التي يمكن الرجوع إليها.
٤. تدعيم المعجم العربي بسمات وخصائص ودلالات جديدة.
٥. المحافظة على سلامة اللغة وجعلها تتماشى مع تقدم العلوم والفنون مسايرة لحاجات الحياة في العصر الحاضر.
٦. ترجمة الكتب والمقالات والاستفادة منها لخدمة عملية التعريب.٢٩

وذلك بتوصيف المواد اللغوية توصيفا دقيقا يستنفذ كل الإشكالات، هذا من جهة ومن جهة أخرى نصل بالحاسوب إلى مرتبة الكفاية في اللغات الحية، ليتوفر شرط الترجمة الرئيس، لنبلغ بالترجمة الآلية مبلغ الفائدة العظمى من الحاسوب بتوفير الوقت والجهد والمال.٣٠

من خلال ما تقدم، يتبين أن الدراسات الخاصة باللغة العربية والحوسبة شديدة الصلة بعضها ببعض، وكل منها يعتمد على الآخر، فالمخزون اللغوي المستعمل في حقل ما يمكن أن يستعمل في حقل آخر، ودراسة الدلالة من السياق يمكن أن يصحح كثيرا من الأخطاء.

وعليه فإن نشر الأبحاث وعقد المؤتمرات وتعاون الباحثين وتعارفهم يزيد في سرعة الوصول إلى أهداف خدمة اللغة العربية وهويتها، خاصة إذا تم ذلك على يد أبنائها الذين يفهمونها ويدافعون عنها ويحملون همها.

إن إشكالية المحافظة على الهوية واللغة العربية في ظل الثورة المعرفية التي تعيشها اللغات العالمية بأبعادها المختلفة، خاصة البعد الثقافي الذي أصبح يطرح بإلحاح شديد بضرورة الانفتاح على هذه المعارف والتعامل معها واستيعابها. وإلا أصبحت هويتنا ولغتنا خارج الدائرة المعرفية العالمية. ومن ثم أصبح مصير مستقبل اللغة العربية في خضم هذا التيار الجارف رهين بإصلاحها وتطويرها في شتى المجالات لتواكب مسار اللغات الحديثة، والتخلص من تبعية اللغة الأجنبية، وما يستتبع ذلك من تبعية فكرية وثقافية وعلمية، ذلك لأن اللغة التي تفقد قوتها على التواصل ستفقد بالضرورة هويتها، ولن يتسنى للغة العربية أن تحافظ على كينونتها إلا بعملية الإبداع الذاتي، حيث يكون متكؤها الأساسي هو ذاتها وليس غيرها.

هوامش البحث:

أولا- المراجع باللغة العربية:

١. أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبات لعبيدات الرياض، ٢٠٠٦.

٢. محمد العابد الجابري، نقد العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥.

٣. نهاد الموسوي، العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.

٤. غليون برهان وأمين سمير، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩.

٥. محمد عبد المجيد النجار، الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، ١٩٦٦.

٦. عمران المصطفى، الترجمة والمثاقفة، دار الفكر المعاصر، بيروت.

٧. صاموئيل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد، ومحمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٩١.

٨. الشاروني عمر، المفهوم في موضعه أو علاقة الفلسفة بالعلوم، دار الجنوب للنشر، تونس ١٩٩٢.

ثانيا- الدوريات:

- نجاة عبد العزيز المطوع، آفاق الترجمة والتعريب، عالم الفكر، المجلد ١٩ العدد ٤، جانفي، مارس، الكويت ١٩٨٩.

- علي خذري، اللغة العربية والثورة المعرفية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة باتنة، العدد ٣، ٢٠٠٩.

ثالثا- المراجع باللغة الأجنبية:

١. Calvet Jean Louis، le marché aux language ed plom، Paris.

٢. Vandry J. language، London، Rout edge and Kegan Pant LTPD، ١٩٥٩.

٣. Sapir E. language، New York، Harvest، Books، LTD.

الهوامش

١ د. علي خذري، اللغة العربية والثورة المعرفية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثالث، ديسمبر، جامعة باتنة، الجزائر ٢٠٠٩ ص ٢٠٨.

٢ د. برهان غليون، صراع الثقافات أو حدود المدينة الغربية، جريدة الخبر، ج١، ١٩٨٤/٠٣/٠٨.

٣ المرجع نفسه، ج٢.

٤ د. محمد العابد الجابري، نقد العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ص ٤٦.

٥ د. برهان غليون، صراع الثقافات، جريدة الخير، ١٩٨٤/٠٣/٠٩.

٦ المرجع نفسه.

٧ المرجع نفسه.

٨ ساموييل، هنتجتون، صدام الحضارات، نيويورك، ١٩٩٧، ص ٥٩.

٩ Edgar Morin، et Salmi Nair، une politique de civilisation، ED: Arela، Paris، France، ١٩٧٧، P ١٧-١٥.

١٠ د. عبد المجيد النجار، الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، ١٩٦٦، ص ٢٣.

١١ المرجع نفسه.

١٢ المرجع نفسه.

١٣ نوري حمودي القيسي، ظاهرة الاستشهاد اللغوي والحفاظ على الهوية القومية، اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات والوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨.

١٤ د. سمير أمين وبرهان غليون، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار العلم، دمشق، سوريا، ط٢، ٢٠٠٢، ص ٦٢.

١٥ د. برهان غليون وسمير أمين، المرجع السابق، ص ٥٠،٥١.

١٦ المرجع نفسه.

١٧ د. أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، المرجع السابق، ص ٣٤.

١٨ Calvet, Jean Louis, le marché aux languages ed: plom Paris ٢٠٠٢, page, ١٧٢.

١٩ من مقابلة له بثتها قناة الجزيرة، مساء يوم ٢٠٠٤/٠٤/٢٨.

٢٠ Calvet, ibed, page, P ١٧٢ ،١٧١.

٢١ د. عمران المصطفى، الترجمة والمثاقفة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص ٧٥.

٢٢ Calvet, ibed, page, ١٧٢.

٢٣ Calvet, ibed, page, ١٧١.

٢٤ د. الشاربي عمر، المفهوم في موضعه، أو علاقة الفلسفة بالعلوم، دار الجنوب للشعر، تونس، ١٩٩٢، ص ١٦.

٢٥ Vandry J. language, London, Rout edge and Kegan Pant LTPD, ١٩٥٩, P ٢٨٣.

٢٦ Sapir E. language, New York, Harvest, Books, LTD, P ١٩٤.

٢٧ Sapir E, ibed P ١٩٤.

٢٨ نهاد الموسي، العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ ص ١٩.

٢٩ نجاة عبد العزيز المطوع، آفاق الترجمة والتعريب، عالم الفكر، المجلد ١٩، العدد ٤، جانفي، مارس، ١٩٨٩، الكويت، ص ٥.

٣٠ وليد العناني، اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، دار الجوهر والنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٣، ص ٥٤، ٥٥.